المسكوت عنه في الرّواية الجزائرية المعاصرة – سكرات نجمة لـ "أمال بوشارب" أنموذجا –

The unspoken in the Algerian contemporary novel – Sakarat Nadjma by Amal BOUCHAREB as an Example

دنيازاد بن قريش *

تاريخ الإرسال: 2021/07/06	تاريخ القبول: 2021/11/17	تاريخ النشر: 2023/05/10

الملخص:

تعكس الرّواية الجزائريّة المعاصرة أهم الخصوصيات الاجتماعية والسياسية والدينية التي تحدد مبادئ عامة للفرد الجزائري وتؤسس لهوية استدعت جدالا وأثارت نقاشا ودخلت في صراع مع الآخر،بطرحها عدّة تساؤلات وقضايا مسكوت عنها ومهمّشة غالبا، فكان لزاما عليها أن تثير وتزعزع تلك القيم المتوارثة جيلا بعد جيل، ولأنّ الظروف التي عرفتها الجزائر أثّرت على المدوّنة الجزائرية حيث تكشف لنا حجم الحمولة الثقافية والفكرية المرتبطة بأهم التحوّلات، ومنه تحاول رواية "سكرات نجمة" للروائية الجزائرية "أمال بوشارب" في مساءلته التاريخ أن تُقحم رؤى ترصد الجذور والمكوّنات الحقيقية للهوية الجزائرية التي اهتمت بتبيين طبيعة الصراع عبر الأمكنة والشخصيات القائمة على الماضي والحاضر والمستقبل،بمعالجة إشكاليات مهمّشة ومقموعة، فكيف يمكن للرواية الجزائرية المعاصرة أن تفضح الحقائق المغيّبة في التاريخ المعاصر؟

الكلمات المفتاحية: المسكوت عنه، الأزمة، الهوية، التاريخ، التراث.

Abstract:

The contemporary Algerian novel reflects the most important social, political and religious peculiarities that define general principles for the Algerian individual. It also establishes an identity that has sparked controversy and that has provoked an argument and got into a conflict with the other, as well. It raises several questions and issues that have often been marginalized. so it was necessary to arouse and destabilize those values inherited from generation to generation. And because of the circumstances

جامعة عبد الرحمن ميرة - بجاية- chochoanis92@gmail.com.

Algeria knew affected the Algerian cultural and intellectual payloads associated with the most important transformations. from it tries to narrate "Sakrat Nedjma" by the Algerian novelist "Amal Bouchareb" in questioning history so as to insert insights that monitor the real roots and ingredients For the Algerian identity that was interested in showing the nature of conflict across places and characters based on the past, present and the future. In addition to addressing marginalized and suppressed problems. how can the Algerian contemporary novel expose the hidden truths in the world modern history?

***Key words**: unspoken, crisis, Identity, history, heritage.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: دنيازاد بن قريش chochoanis92@gmail.com

مقدمة:

إنّ الرواية الجزائرية المعاصرة تخاطب العقل والمنطق قبل الوجدان، لأنّها تضيء على معارف وحقائق مغيّبة في الواقع، تتحاشى السّلطة وعامة الشعب الخوض في نقاشها وإثارتها فكادت أن تصير من التابوهات، خاصة ما ارتبط بأحداث سياسية وتاريخية أو دينية والتي تظلّ تشكّل متاهة يصعب الوصول إلى فكّ شفراتها، بسبب التعتيم المسلّط عليها، لكنّ الرّواية كمتن تخييلي وبأسلوبها غير المباشر أصبحت تقف عند المصير التاريخي لبعض الأحداث والشخصيات المرتبطة بها، ومنه كان من بين محاورها الأساسية الكشف عن الحقائق المسكوت عنها وقياس مدى الوعي بها عند الشخصيات الجزائرية.

تتغيّر المشاهد السردية في المتن الروائي حسب مخيّلة الكتّاب والأحداث التي يودّون الإضاءة عليها، فتخضع تلك القضايا المروية لمصيدة الأفكار الإبداعية التي أجاد الكاتب صياغتها بأسلوب مفبرك غير مألوف، لأنّ السرد وأبعاده يفرض على الكتّاب نهج صياغة حبكة تشويقية فليس كل ما ذُكر في المتن الروائي هو حقيقة واقعية لأن

الروائيون يخضعون نصوصهم بذكاء وحنكة إلى فضاء تخييلي يمكّنهم من خداع القارئ فيما صرّح به من معطيات هوياتية أو معرفية تكون في تركيبها ذات علاقة به. بغية مقاربة الموضوع نطرح الإشكاليّة الآتية:

- كيف يتشكّل المسكوت عنه في الخطاب الرّوائيّ صدد الدّراسة؟

- إلى أيّ مدى انعكست قضيّة التّغييب الهوّياتي في الخطاب الرّوائي؟ وكيف تتآلف التّشكلات الخطابيّة لبناء الرّؤيا الكاشفة لقضايا الطّابو في الرّواية؟

2. قضيّة التّغييب الهوّياتي في الخطاب الرّوائيّ:

تعرف "الهوية الثقافية أنّ لها وجود تاريخي دنيوي، والتاريخ الدنيوي قرين التحوّل والتغيّر والتبدّل، فليست الهوية – كما يكتب ستيوارت هول- وجودا مستقرا على الإطلاق، يبقى غير قابل للتغيّر خارج التاريخ والثقافة... إنّ الهويات الثقافية موضوع في طور التكوين، لا بصورة ثابتة بل من خلال خطابات التاريخ والثقافة. والهويات ليست جوهرا بل هي حركة من حركات التموضع ولهذا فهناك دائما سياسات للهوية، وسياسات للموضع الذي تستقر فيه الهوية برهة من الزمن قبل أن تتحوّل إلى موضع آخر"[1]فالهوية الثقافية كثيرا ما تطالها التغيّرات التي تلحق بالجوانب الحضارية والحياتية لأنّ التحوّلات السياسية والاقتصادية تؤثّر عليها.

يأتي التّمثيل لقضيّة التّغييب الهوّياتي ما حدث في إحتفائية الجزائر عاصمة الثقافة العربية؛ أين بادرت وزارة الثقافة إلى دعم الشباب لنشر بعض المؤلفات على عاتق الدولة، ومن بين الرموز الجزائرية عبر التاريخ نجد الشخصية الأمازيغية "الكاهنة" التي كانت تحكم المغرب الأوسط قبل الدخول الإسلامي، يثير هذا الرّمز التّاريخي الكثير من الجدل بسبب هويتها الدينية المسكوت عنها "أنا لا أريدك أن تنسي أنّ هذه التظاهرة يحتضنها بلدنا، والكاهنة ببساطة شديدة جزء من تاريخنا، كما أنّ ديانتها لا يمكن أن

تنفي وطنيتها"[2] فبغض النظر عن ديانة الكاهنة إلا أنّها سعت للحفاظ على أرضها وحماية شعبها من الغزو الإسلامي في تلك الحقبة التاريخية، وهذا ما يجعل أي إنسان يحتفي بوطنيتها وإخلاصها ويعجب بمدى تشبّثها بالأرض واثبات الوجود فهي رمز ليس وطني فقط بل هوياتي ثقافي خالد في الذاكرة الجماعية لا يمكن الانسلاخ عنه.

غالبا ما تلجأ المجتمعات في الدول إلى التغطية على حقائق ذات الصيت البعيد والتي هي ركن أساسي في بلورة الوعي وحتى أنها مرجع أصيل للثقافة الوطنية أو العالمية، فمنها الحقائق المهمّشة، والتي يكون لها أثر في بعض التحولات الإيديولوجية والفكرية فيطغى نوع من الاستبداد نحو الثقافة المحلية أو اتجاه الآخر فتلجأ السلطة إلى إلغائه بتزييف تلك الأطروحات وهذا ما يراه هربرت ماركيوز في الهوية أنّها ما: "يمارس المجتمع ذو البعد الواحد تزييف الهوية ووعي أفراده. فالمجتمع الصناعي زيّف حاجات الإنسان المادية والفكرية، حيث يمثّل الفكر عدوّا لدودا لمجتمع السيطرة، لأنّه يمثّل قدرة العقل النقدية"[3] فإذا كان العقل النقدي أساس بناء المجتمعات المتقدّمة فما محلّه في المجتمعات المتخلّفة، إنّ العقل النقدي تمّ شلّه بالأفكار النمطية التي توازي طموح السلطة ذات التفكير الأحادي وهذا ما نجده في الجزائر المستقلة التي روّجت للاشتراك الجماعي في الثقافة ذات المنحى العربي القومي، فأضفى رجال الحكم مشروعية ممارسة السلطة في تشكيل هويات الأفراد وصياغة الوعي الجماعي والذوق العام وهذا ما يسميه بول ريكور بوظيفة "إدماج" الأفراد في إيديولوجيا الجماعة[4]، تثير الرواية نقطة حساسة وهي أصل السكان في شمال إفريقيا عموما وفي الجزائر على وجه الخصوص، فالعرب جاؤوا لنشر الدين الإسلامي وقاموا بعملية التعريب على القطر الوطني، لكن في خضم التظاهرة أين نضع الشخصيات التراثية الأمازيغية "قد تكون المشكلة أنّ الكاهنة ليست عربية. قالت سهيلة دفعة واحدة من دون اقتناع وهي تنهض الآن من على مكتبها. إذا كان هذا هو السبب فعلا فما عليك إلا أن تلغي السلسلة من أصلها ! قالت داميا بمكر.

"لأنّني أذكرك أننا انتهينا من إعداد الكتاب الخاص بفاطمة نسومر وهي على حد علمي ليست عربية ... لكنّها مسلمة ... ولكن على حدّ علمي التظاهرة هي الجزائر عاصمة الثقافة العربية وليس عاصمة الثقافة الإسلامية"[5]، كلّ من "الكاهنة" و"فاطمة نسومر" دافعتا عن وطنيهما ضدّ الغزوّ وكلتاهما كانتا من سادة القبائل، تفتخر المرأة اليوم بشجاعتها، لكن تاريخ السلطة يمجّد "فاطمة نسومر" ويحاول التملّص من " الكاهنة"، وهذا مردّه ليس الهوية اللغوية بقدر ما نقف عند الهوية الدينية المختلفة عند كلتيهما، بالرغم من أنّ الاحتفالية تخصّ الثقافة العربية وليس الأمازيغية وليس الديانة، فالجدل القائم هو هل يمكن أن يتجرّأ التاريخ والقائمين عليه على ذكر اسم "الكاهنة" في كتبه الرسمية وهل ينشئ أجيالا تحترمها وتقدّرها؟؟ !!.

قد تصادف الرواية التاريخية هويات متباينة تجعلها في حالة صدام ونزاع فيشعر المتلقي أنّ الكاتب يحاول أن يميل إلى اتجاه محدّد ففي الحقيقة أنّ الروائي ليس هدفه الأسمى هو كتابة نص تاريخي محض لأنّ هذا عمل المؤرّخين الذين يعتمدون على التوثيق وتوخي الدقة في ذكر المعلومات التاريخية بالمقارنة والموازنة لكشف الزيف من الأصل، أما الروائي فقلمه مطواع يستطيع من حوادث ماضية وغابرة في التاريخ استرجاعها وخلقها من جديد لتنتعش في الحاضر،فقدرته التخييلية تسهّل عليه إعادة صنع عقدة تظهر مسار تاريخ الهويات بطريقة تجعل التعايش بينها ممكنا ومحدودا أو العكس حين تفضح الصراعات والخصومات على مرّ التاريخ فيلجأ الروائي إلى إعادة نسج وترتيب الحوادث والمواقف التاريخية بطريقة تخدم ذلك الهدف. وبصيغة تقترب من أشكال السرد ما بعد الحداثي وبخاصة ذلك الشكل الذي تطلق عليه "ليندا هاتشيون " ما وراء القص التاريخي، حيث يكون السرد تخييليا وذاتي الانعكاس ويقوم – في الوقت ذاته-على وقائع تاريخية واجتماعية وسياسية فهو سرد يلفت الانتباه إلى طبيعته السردية/ التخييلية والتاريخية معا "والحال أنّ الكاهنة كانت ملكة أمازيغية

ولدت حوالي عام 620، إلا أنّها من الشخصيات النسائية النادرة في التاريخ اليهودي ممن تبوأن الحكم. وقد كانت تحظى بتبجيل أفراد قبيلتها التي قاتلت على رأسها بشراسة ضدّ حسان بن النعمان الغساني والي مصر ومبعوث الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان لفتح شمال إفريقيا لتلحق به خسائر فادحة عام 693، اضطر معها للانسحاب والعودة في حملة ثانية قُتلت الكاهنة خلالها"[6]، قد دافعت الكاهنة عن الجزائر حقيقة لا بدّ من الاعتراف بها وتعلّمها وربطها بسياقها التاريخي الذي يندرج ضمن الفتوحات الإسلامية، تظهر شخصية "الكاهنة" صورة المرأة ذات القوة والمكانة الرفيعة، ترفض الطغيان والاستيلاء على أرض أجدادها، دافعت وواجهت والي مصر وألحقت به الضرر، فانتقم منها بقطع رأسها وإرساله إلى الخلافة الأموية، هذه حقيقة ما جرى لكن تبقى هناك حيثيات أخرى مسكوت عنها.

3. أدلجة الدّين كسبيل لتزييف التّاريخ:

مهما سعى رجال السياسة إلى إخفاء تركيبة المجتمع الثقافية والإيديولوجية فلابدّ لأبناء البلد من الوصول إلى التقصّي عنها ولو مرّت ألاف السنين على طمسها وجعل النظر إليها بمثابة جريمة مرتكبة، فالفرد وشخصيته التي تمتلك الجرأة في البحث والتطلّع إلى معظم الموارد الثقافية كان لزاما عليه أن يبحث في تلك الوقائع المغمورة في صفحات التاريخ، فالوقوف عندها والتمعّن فيها يجعله يفكّر في مقاومة أجداده للرسوخ في ذاكرة الأمة حتى وإن أصابها النسيان، فالتوجّهات الإيديولوجية هي المركز الذي يساهم في بناء التحوّلات السياسية التي يسيطر عليها الفكر المهيمن، الاعتقادات (الأيديولوجيا) تكون مخفية ومخبوءة، لكنّها تؤثّر بصورة مادية جلية في الأفراد والجماعات من خلال الممارسات المادية التي تحدّدها "أجهزة الدولة الأيديولوجية" وهذه العملية تفترض بحسب ألتوسير فرضيتين: الأولى أن ليس هناك أيديولوجية إلا بالإيديولوجيا ومن أجلها. والثانية أنّه ليس هناك أيديولوجيا إلاّ بالذات ومن أجلها .

والذات في مفهوم ألتوسير لا يستخدم الفرد إلاّ وقد تأدلج[7]، فدعم أيديولوجيا معيّنة يكسب ترجيح كفّة محدّدة وتشييد شخصيات متحكّم فيها أو ما يسمى بدواليب السلطة التي تسيطر على كلّ أطراف المجتمع.

تنعكس الثقافات التي تبدو متناحرة أو مندمجة أدائيا وتطبيقيا على أرض الواقع فلا ينبغي التسرّع في قراءة تمثيل الاختلاف على أنّه انعكاس لخصائص اثنية أو ثقافية متينة مسبقا ومدوّنة في لوح التراث المحفوظ. والإفصاح الاجتماعي عن الاختلاف أمر معقّد و يتواصل إلى أن يُشكِّل هجنة ثقافية داخل المجتمع الواحد فتبزغ في لحظات التحوّل التاريخي. وتنقل من هامش القوة والامتياز اللذين يحفظهما استمرار التراث فلا يحق لأحد كان توقيفه أو مسحه، وإنّما يلوذ بقوّة هذا الأخير كيما يعاد نقشه على العارضة والمتناقضة التي تكتنف حيوات أولئك الذين هم أقلية. والتقدير أو الاحترام الذي يمنحه التراث إنّما هو شكل جزئي من أشكال تعيين الهوية[8].

تبنى شخصية الأفراد من خلال المجتمعات التي ينشئون بها فيتأثروا بمجموعة من الطقوس والتقاليد والقيم ويكتسبون لغة بيئتهم، ويتطوّر الفرد حسب المؤسسة التي ينتمي إليها ويمارس فيها مجموعة من المزايا والمقوّمات فيولد في مجتمع أبوي أو أموسي وتحدد ديانته على أساس الإسلام أو المسيحية أو اليهودية ... فلا يملك في بداياته الجرأة على التمرّد على أي شيء بل تغرس فيه تلك الأفكار دفعة واحدة لأنه لا يرى غيرها ولا يفعل سواها ومنه "فما إن يولد المرء فإنّ كل الاحتمالات تنتهي لصالح احتمال واحد لا غير، حيث يولد المرء فيدمغ باسم ثقافي يحدد هويته الثقافية ... كما يحدد هويته الجنوسية، ... وتشتغل عليه فور ولادته آليات التشكيل الإيديولوجي التي تبدأ بالأسرة والمجتمع والمدرسة ... ومؤسسات الثقافة"[9] فصورة الفرد هي انعكاس حتمي للانتماء الجغرافي الذي ينتمي إليه، خاصة إذا بقي طيلة فترة حياته متموقع فيه ولم

يخالط الآخرين هنا تتشكّل هوية أحادية لا يمكن أن تتزحزح عنه، ولا يمكنه الخروج عنها لأنّه لم يعرف غيرها.

يرى الكثير من الدارسين للأدب أنّ الأمم يُشوّه تاريخها مع مرور الزمن مثلما يحاول الأديب صنع تاريخ مواز لها عبر الخيال حيث يقول "هومي بابا" أنّ الأمم " مثل السرديات، تفقد جذورها في خضم الزمان وأساطيره، ولا تستعيد أفقها إلّا من خلال الخيال". واستعادة "الأفق الخيالية" هذه هي في الأساس عملية تأويلية، حيث الهويات في الأغلب تأتينا من الماضي، فتتشكّل في لحظة ما ثم تنضج ثم تنتقل إلينا. وهذا الأمر يجعل من تشكّل الهويات ليس مجرّد عملية اعتباطية فحسب، وليس مجرّد عملية موضعة فحسب بل هي في الأساس عملية تأويل أو إساءة تأويل للماضي والتاريخ والثقافة[10] فيمكن للروائي أن يضيف أفكار قد تكون إيجابية على البنية السردية وقد تؤدي بتاريخ تلك الدول إلى الفوضى فيكون أثرها سلبي على البلدان التي طمست هوية أجدادها وهذا سيشكل صراع الأجيال فيما بعد بطرح سؤال من نكون؟ وأين هي الحقيقة الفعلية؟ ومن قام بتدنيسها؟.

لا يمكن للإنسان أن يتخلى عن ماضيه أو يتجاهله لأنّ علاقته به تبقى مستمرة خاصة إذا ما كان شديد الاتصال به يسترجعه من حين لآخر فلا يموت في دفّات الكتب ولا يمكن للذاكرة أن تزيله، فيتمّ تشخيص الماضي بالعودة إليه لكن هذا الحديث يتطلّب ذات حاضرة مرتبطة بماضيها بشكل وطيد تكون محطة ثقة عند الناس، لأنّه يصعب تنقية وفحص الماضي التاريخي خاصة البعيد فالكثير من الشخصيات تتلاعب بالأخبار وتروّج لحكايات مغلوطة تميّزها الصياغة الفنتازية والأسطورية. "إنّ الماضي ليس بالضرورة ماضي متخيّل ولا واقعي، لكنّه مثلما يقول بول ريكور موضوع ليس بالإمكان التأكّد منه، لأنّه باختصار لم يعد موجودا، ولهذا فإنّ التاريخ أو السرد التاريخي لا يمكن معه إلّا بطريقة غير مباشرة، ومن هنا تفرض القرابة بين التاريخ والسرد

التخييلي نفسها، "فإعادة تشييد الماضي، كما أكّد على ذلك كولنجوود، هو من عمل المخيّلة. والمؤرّخ أيضا... فإنّ التاريخ يلاءم بين التماسك السردي والتطابق مع الوثائق. وهذه الصلة المعقّدة تطبع الوضع الاعتباري للتاريخ بوصفه تأويلا"[11].

السرد هنا ليس قصّا محايدا وبريئا للوقائع والشخصيات وليس بعيدا عن الصراع، ذلك أنّ سيادة قضية لا يتمّ إلّا على حساب أخرى كان لا بدّ من التخلّص منها، وإن كانت من قبل هي السائدة، وهذا سيشكل خطرا على الثقافات الموجودة داخل الوطن الواحد أو بين عدّة أوطان بسبب اختلاف النمط الثقافي أو العلاقات التي تحكم بين الأطراف المتخاصمة فيما بينها سواء لغويا أو سياسيا أو اقتصاديا ... وسينتج هذا صراعا بين حضارات وأقاليم تؤدي إلى إقصاء الآخر، فتسود هوية أو نمط معيشي واحد لأمة أو لثقافة معيّنة، تأثر يهود الجزائر باللغة العربية فتبنوها بدلا عن العبرية في معاملاتهم اليومية والرسمية وقد طغت حتى في أداء صلواتهم، وأعظم كتابهم قد ألّف كتبا باللغة العربية تضاهي ما كتب في شبه الجزيرة العربية "بل هم دأبوا على استخدام اللغة العربية في كافة شؤونهم فأصبحت اللغة شبه الرسمية لليهود في حوض البحر الأبيض المتوسط، وقد كانوا يستعملونها في التخاطب بينهم ووضع مؤلفاتهم وحتى في أداء صلواتهم، حتى أنّ الكاتب اليهودي ألبير بن سوسان اعترف في كتابه Mon Algérie أنّ والده كان يترجم فوريا الصلوات والدعوات المرافقة لمختلف الطقوس الدينية اليهودية إلى العربية حتى تفهم جدّته ما يقال، وهذا يؤكّد أنّ حضور اللغة العربية في الأوساط اليهودية أقوى من اللغة العبرية"[12]، فإذا أراد النظام تشويه اللغة الأمازيغية وعدم الاعتراف بجزائرية هؤلاء من خلال تغييبهم من التاريخ الرسمي حسب ما أضمرته الرواية فحتى اليهود دنّسوا اللغة العربية بتبنيهم لها في أداء صلواتهم، تمجدّ اللغة العربية وتقدّس كونها اللغة التي نزل بها القرآن الكريم: "وأُنْزِلَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين"، هذا التقديس ما فتئ أن أهين بمجرّد ما وظفه اليهود في معاملاتهم إذن.

تؤمن رواية سكرات نجمة على رؤية مفادها أنّ التاريخ ليس شيئا أصيلا وجوهريا لأنّه لو كان كذلك فلن يكون أمامنا غير خيارين: فإمّا أن يتم إحياؤه وبعثه، وإمّا أن يتم رفضه واستبعاده، وكلا الموقفين يشيّئ التاريخ ويجوهره، فيما التاريخ موضوع ينبغي التوافق معه، ومن ثم نقرأه ونعيد قراءته ونقلّب مكوّناته ونعيد تحبيكه مرات ومرات، بل حتى نتجرّأ عليه من باب الاختلاف والادّعاء من أجل أن يتناسب مع مقاصد المؤلّف وغاياته فالسياقات الثقافية تشكّل اهتماما بليغا عند الكتّاب خاصة الجدد الذين يساءلون قضايا مهمّشة في التاريخ الرسمي.

إنّ امتلاك القوّة السياسية، والتوسّع في قضية التعدّدية الثقافية، يأتيان من طرح أسئلة التضامن وإضفاء الروح الجماعية من المنظور البيني فالاختلافات الاجتماعية لا تختبر ولا تعاش من خلال تراث ثقافي مؤصّل مسبقا، وإنّما من خلال علامات تنبثق عن جماعة سائدة في مجتمع ما لها رموزها الخاصة التي توحي إليها ففي الثقافة العبرية رمزية "الخامسة" مثلما هي معروفة في التقاليد الجزائرية "... والذي تجرّأ مع ذلك أن يلمّح في حضرته بأنّ (الخامسة) التي تزيّن شعار الجمهورية الجزائرية، قد تكون ملكا لإسرائيل لمجرّد أنّ النماذج منها معروضة في الأمم المتحدّة على أساس أنّها جزء من التراث العبري"[13]فهذا ليس شكل من أشكال الخلاف والتغاير الثقافي بل هو نوع من التكامل والتشابه بين الثقافات وهذا ما منح صدمة تاريخية غير متوقّعة عند المتلقي.

ماذا يفعل الروائي أمام تاريخ محمّل هكذا باضطرابات وتوترات في هوياته الثقافية؟ قد يوجد من يكتب الرواية بدافع الانتصار لجماعة معيّنة ينتمي إليها، فيعمد إلى كتابة تاريخ اصطفائي ينتصر فيه لهوية ثقافية ذات توجه سياسي أو ذات أبعاد إيديولوجية معيّنة، وهذا قد يستفز الأطراف الأخرى المخالفة لها وقد تثور كي تدافع عن كينونتها، فالتحريض على كتابة تاريخ السلطات وثقافتها -إن صحّ التعبير- على حساب

كتابة تاريخ الآخرين وهوياتهم بالطريقة ذاتها، مما يعني أنّنا نسقط تلك التوترات على الحبكة السردية، فالمطلوب من الرواية الآن أن تكون نصا نقديا لما هو سائد من عقليات حرّفت التاريخ وقامت بتزييفه وتقزيمه وإذا ما أرادت أن ترتقي لا بدّ لها أن تعرف مكامن الضعف في الآخرين الذين قاموا ببتر مجدها لتقوى هيمنتهم، لا تسعى الرواية إلى إبداء النقد لتحطم الآخر إنما تبذل جهدها من أجل تحرير الوعي المكبّل بأغلال السلطة المسيطرة على الساحة، مما يؤدي إلى انفتاح الفكر وإعلاء مبدأ التسامح والتحاور فتعترف بالهويات والثقافات ومختلف أنماط التفكير الموجودة داخل الوطن الواحد دون خوف من الواقع الاجتماعي لأنّه أمر مفروض وحتمي، بل حتى لا تسود العنصرية وإقصاء الآخرين لأنّهم فقط متباينين في التوجهات والأفاق، فلكل بلد مميّزاته التي تجعله يتفرّد بها، والجزائر كقطر كبير فإنّها تتنوّع بتراث ثقافي واسع.

تثير الرواية أيضا مفهوم الهوية المعمارية بغرض استكشاف الأطر التاريخية والفكرية في ثقافة البناء، كان لزاما على المصمم الجزائريّ أن يضع تصميما مناسبا للهوية العربية ولذوق المجتمع الجزائري، لكي لا ينسلخ في الآخر ويطمس كيانه " إنّ لكلّ أمّة نمطا معيّنا بالبناء طوّرته أجيالها عبر الزمن، وبدأت فيه وغيّرت حسب مقتضيات الأحوال. فهذا النمط أو ذاك يعتبر من ملامح شخصية الأمة التي تعرف من خلالها بين الأمم وعبر التاريخ شخصيتها في بنائها وعمرانها"[14].

هل نستطيع أن نعتبر الشكل المعماري أحد عناصر الدفاع عن الهوية الثقافية؟ أثارت الرواية الجزائرية المعاصرة الهوية المعمارية متخذة من شكل مطار هواري بومدين الدولي وهو أحد الركائز الأساسية في الهوية الجزائرية والذي يعتبر معلما تاريخيا كاسم وكقطب يأتي إليه ملايين المسافرين، فيتم تدنيسه عن طريق إلحاق شكل تصميمه بأحد الرموز الماسونية وأن مهندسه قلّد "حيراف أبيف" الذي وضع شكل هيكل "سليمان"، فكيف يمكن أن يربط هذا اليهودي بالجزائر ويضرب بها مع أنّها في عداء

دائم ومتواصل والكل يعلم رأي الجزائريّ في الكيان الصهيوني "لقد كان واضحا من الصورة أنّ مهندس مطار الجزائر قصد أن يبدو الرسم من الجوّ على شكل الرمز الذي ارتبط بحيرام أبيف مهندس هيكل سليمان، والذي يطلق عليه اسم المهندس الأعظم للكون بحسب العرف الماسوني ويرمز إليه بحرف G، ... ويعتقد آخرون أنّ هذا الرمز لا يشير في الواقع إلا للحرف الأوّل من كلمة Gematria، وهي القانون المكوّن من اثنين وثلاثين بندا والذي وضعه أحبار اليهود لتفسير الكتاب المقدّس في سنة 200 قبل الميلاد وهو نفس درجات الماسونية، تأمّل إرمانو الآن الرمز الماسوني الشهير الظاهر في مطار الجزائري الدولي والذي كان يرمز إلى العلاقة المتبادلة بين الأرض والسماء.."[15] تحاول الرواية أن تعطي عدّة تفاسير لجعل حرف G رمزا مقدّسا في الديانة اليهودية، فإذا كانت السماء تمثّل الحقيقة الأزلية المطلقة، فإنّ الأرض ليست دائمة، وفي الكثير من الأساطير القديمة يرمز إلى السماء على أنّها إله (ذكر)، وأن الأرض هي المرأة، فترتبط قداسة المرأة بقداسة الأرض لأنّها منبع الخصب والولادة، فكأنّ الروائية تحاول أن تشيّد معبدا آخر لليهود في أرض مقدّسة رافضة للانتهاك وبأن تطالها يد اليهود، وهي دائما مفتخرة بالانتماء للدين الإسلامي، فهنا دمّرت أحد المقوّمات الرئيسية للهوية الوطنية.

لا تزال الأفكار الماسونية تلقي بصداها على التراث الوطني وعلى مكوّنات الأمة فقد خلعت الروائية الستار الذي يحجبه رمز رأس الثور الذي يزين عملة الألف دينار المعتمدة في الجزائر منذ التسعينيات إلى اليوم "تنحنحت كاترينا وهي تنظر إلى الوجه المفزع لذلك الثور الذي اختير من طرف البنك المركزي الجزائري عام 1992 ليعكس البعد الحضاري والثقافي لهذه الدولة كما تفعل جميع الدول عندما تفكّر بإخراج عملات جديدة. تمتمت وهي تبسط كفّها الآن على صدرها على نحو جنائزي:"لا عجب في دموية هؤلاء إن كان لا يزالون يعبدون الإله مولوخ ويتداولون صوره في عملاتهم". وتسارعت دقات قلبها وهي تنظر إلى الأنف المعقوف والذي اقتنعت بمجرد قراءة ملامحه أنّه يهودي

جشع بينما كان هو يعد بلهفة الخمسين ثورا الذين وضعتهم لتوّها على طاولته....التي وجد البعض فيها صلات واضحة بالماسونية العالمية حيث يظهر المدور والكوس وسط الورقة على نحو مموّه، وكذا الهرم وعين حورس وهي جميعها رموز ماسونية"[16] ف "مولوخ" أحد الآلهة الكنعانيين القدامى ومشهور أيضا في الثقافة العبرية، الإله "مولوخ" صاحب نزعة مازوشية يتلذذ بتقديم القرابين له فلا يرضيه إلا رؤية حرق الأطفال على مذبحه هذه النزعة الشريرة التي اتّصف بها، بتعذيبه للأطفال فيقتل مستقبل وطنه بوحشية فضيعة، فكيف لدولة مثل الجزائر أن ترضى بوضع رمز مولوخ على إحدى عملاتها، نعم مرّت الجزائر بعشرية دموية ارتوت أرضها بدماء الضحايا التي كان المجرمون يتلذذون أيضا في قتل ضحاياهم بدماء باردة فلا فرق بينهم وبين الإله "مولوخ" المتعطّش للدماء، فكأنّ الرواية تربط ما حدث في جزائر التسعينات بظهور المنظمة الماسونية الشيطانية في العالم، بما أنّه يوجد من يمثلها وعلى العلن، ففي المحل التجاري وجدت الرموز الماسونية من الكوس والمدور وعين حورس إنّ مهمة المثقف هي جعل فهم الذات لدى الفرد الاجتماعي الأساس لفهم العالم فـ: " الثقافة السياسية هي (...) وليدة ذكائهم" ولا يتعلّق الأمر بتطبيق المعرفة، بل مساعدة التطوّر المتأصل للعقل المحلي"[17] فلا بدّ من تطوير العقل وتنشئته على مفاهيم فكرية وإيديولوجية تمكّنه من مواجهة الأفكار الدخيلة على هويته الثقافية.

تركّز التمظهرات المطروحة في الرواية على القضايا الشائكة التي تفضح العلاقات الناشئة داخل الدولة وخارجها بالشكل "الحاسم على المستوى السياسي، هو الحاجة إلى المضي بالتفكير أبعد من سرديات الذاتيات الأصلية والبدئية والتركيز على تلك اللحظات والسيرورات التي ينتجها الإفصاح عن الاختلافات الثقافية. فهذه الفضاءات، البينية، تفسح المجال لبلورة الاستراتيجيات المتعلّقة بالذات والذاتية -فردية أو جماعية- الأمر الذي يطلق دواليل جديدة للهوية، ومواضع جديدة للتعاون، والتنازع لدى القيام

بتحديد وتعريف فكرة المجتمع ذاتها [18]، جوانب السخرية والأفكار الطريفة التي احتوتها الرواية في مقاطع سردية متنوعة توحي بمدى ذكاء الرواية الجزائرية المعاصرة وأهميتها ومن الصور ذات الأسلوب الهزلي ذكر أحب أنواع الحلويات عند معظم الجزائريين حلوى "التشاراك" والتي هي عبارة عن شكل هلال ذو لون أبيض يشابه الهلال الطبيعي، ويعتبر الهلال أحد رموز الدين الإسلامي، في المتن الروائي يُعترف بأن التشاراك أصله عثماني، والخلافة الإسلامية كانت دولة عظمى ترأست العالم لعدّة قرون، لكن من الصدف تطرح الرواية إشكالية من خلال أكل "التشاراك" هل يعقل أن تأكل الخلافة العثمانية الدول الإسلامية التي هي تحت حكمها مثلما تؤكل حلوى "التشاراك" صبيحة يوم العيد الفطر بعد أن صامت رمضان؟! " ... فماذا عن حلوى التشاراك؟ ... كيف للعثمانيين أن يأكلوا أهلتهم؟ ... كيف يمكن أن نحتفل نحن بتحضير التشاراك العريان في آخر أيام رمضان وأكل رمز السيادة الإسلامية صبيحة العيد إذن؟... والواقع أنّ عبد الله تفادى ذكر نسخة أخرى لتاريخ صنع الكرواسون والمختلفة تماما عن نسخة قضم الهلال الإسلامي من طرف النصارى احتفالا بهزيمة العثمانيين... وفي 1549 أقامت ملكة فرنسا ماري أنطوانيت الفرنسية مأدبة في باريس تم فيها تقديم أربعين نوعا من الحلوى على شكل هلال يعتقد أنّ الهدف منها كان للاحتفال بذكرى التحالف الذي مرّ عليه عقود بين الملك فرنسوا الأول والسلطان سليمان"[19] تعرّت الهوية العثمانية عندما دخلت في علاقات سياسية مع الإفرنج وتحالفت معهم، وأخذ الهلال شكلا مخالفا للذي اشتهر به من قبل وصار يؤكل يوميا مثلما أُكل العرب بعد انهيار الدولة العثمانية فهضمت كل الأهلة التي كانت تحت راية الخلافة العثمانية.

تتجلى خطورة أجهزة التشكيل الأيديولوجي في أنّها وسيلة من وسائل الهيمنة، هيمنة تصوّر أو ثقافة أو هوية أو طبقة على أخرى، وهذا يعني أنّ التعدّدية الكامنة في بني البشر وفي مصطلح "الجماهير" يعني في أقل تقدير، أنّنا لسنا مجتمعا أحاديا

ومتجانسا ومتناغما بصورة مطلقة، فهناك عدّة تصنيفات غير متجانسة لا على مستوى العمر ولا الطبقة ولا الجنس... لكن الذي يحدث أنّ "أجهزة الدولة الإيديولوجية" – أجهزة التربية والإعلام والثقافة والطب تحديدا – تجهد من أجل تشكيل هذا الكم المتغاير في جهاز تربوي تعليمي واحد (روضة، مدرسة، معهد، جامعة) ويخضع لوسائل إعلام واحدة، ويتعرّض لفهم مخصوص عن نفسه وجسده، مما يعني أنّ الناتج لهذه العملية هو بالضرورة هوية أحادية متجانسة. تمثّل أذواقا ووعيا وتصوّرا ورؤية واحدة. وفي مقابل هذا الاختزال لكل الاختلافات الثقافية قد تقوم "أجهزة الدولة الإيديولوجية" بالإقرار بالاختلافات الثقافية. ولكن الإقرار الذي يتضمّن الإعلاء من شأن هوية معيّنة وإقصاء بقية الهويات ، لا لشيء إلاّ أنّها تختلف عن تلك الهوية في العرق، أو الدين أو الجنس وهو ما يقود إلى العنصرية ومفاهيم النقاء العنصري والرقي العنصري، في مقابل التلوّث والدونية اللذين يلازمان أحد الأعراق البشرية[20]، كان للسؤال الجوهري فيما تعلّق بالدين الإسلامي وخاصة في القرآن الكريم كنص محفوظ من قبل الذات الإلهية ولا يمكن التشكيك فيه، لكن بالنسبة لمصادر التشريع الأخرى كثيرا ما ضبّبت اتجاهها الرؤية واعتبرت عند الأفراد على أنها مقدّسة ومحفوظة وهذا ما أثار حفيظة الأستاذة عندما سُئلت عن "البخاري" وعن "الإجماع"- أستاذة إذا كنّا نعتبر أن القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد غير المحرّف لأنّ الله قد حفظه من أي تغيير، فماذا عن كتاب البخاري؟

-لم أفهم سؤالك.

-أقصد لماذا نأخذ السنّة كمصدر للتشريع مع أنّنا غير متأكدين من عدم تعرّضها للتحريف...

-"بلّع فمّك. لن أسمح لأحد هنا أن يشكّك في رسولنا الكريم ... إلا رسول الله..."[21]

يواصل التلميذ المراهق طرح أسئلته حول مصادر التشريع الإسلامية فوقف عند الإجماع ولفتته كثرة التعريفات: " أستاذة، إذا لم يجمع العلماء أصلا على تعريف الإجماع فكيف لهم أن يجمعوا على أمور أخرى ؟ وكيف يمكن أن يكون مجموعة من العلماء اجتمعوا على ألا يجمعوا مصدرا للتشريع؟

–برا برا... [22]

أثار التلميذ سخط وغضب أستاذته لمناقشته إياها في مقوّمات دينية لا يجب خوض النقاش فيها، بسبب النظرة التقديسية لها، وكأنّه انتهك حرمة الدين فلقي تعنيفا لفظيا أوّلا ثم كلّفه مواصلته لطرح إشكالاته إلى طرده من المدرسة، التعليم الموجه الذي تبنته المدرسة الجزائرية هو الذي يجمّد العقول ويثبّطها فتصبح تتلقى الفكرة كأجهزة استقبال تسجل المعلومات فقط من دون أن تنتظر ردّة فعل، وهذا سيقتل الإبداع وسيجعل الدين يحمل تأويلا واحدا خاضع لقالب قياسي واحد، وكلّما استدعى السؤال فيه سيدفع السائل الثمن بالعقاب، بالتكفير، بالقتل والتعذيب، مع أن الله سبحانه وتعالى دعا إلى التدبر والتأمل في الكون، وإذا كان الأستاذ رمز لتنوير الفكر فقد صار في هذا المقطع مكبّل ومجهض لمستقبل الأمم.

4. تشاكل الخطاب السّردي وانفلات الطّابو:

تأتي المواضيع المسكوت عنها كاللّغة والدّين والهويّة على شكل لعبة سردية تخضع لمعايير الحبكة بسبب الجماعات التي لا تتمثّل وجودها التاريخي الخاص بها إلاّ من خلال السرد الروائي وبحسب إدوارد سعيد فإنّ: "الهوية القومية متورّطة باستمرار في السرد؛ سرد ماضي الأمة، وسرد أجدادها المؤسسين، وسرد الوثائق والوقائع الأصلية"[23] فما تكاد تتجاهله هيئات معيّنة تفضح خيوطه الرواية على شكل حبكة محكمة يصعب تجاوز تلك الحقائق المقرّة فيه وهذا ما يجعل السرد ذو أهمية في الحفاظ على تاريخ الأجداد وتراثهم الثقافي، ويبرهن على وجود أمة كانت لها هويتها وكينونتها رغم أنّه يوجد

من يريد التخلّص منها، ويرى بول ريكور أنّ السرد يكوّن الهوية ويعيد صياغتها بالطريقة ذاتها التي يقوم فيها "التحبيك" بتشكيل التاريخ وإعادة صياغته، لأنّ السرد يجمع عناصر الهوية المتنافرة والمتباينة في وحدة منسجمة وذات حبكة مترابطة أيضا[24] فيؤدّي هذا إلى الاعتراف بمفهوم الوجود الذي لا يستغني عن أيٍّ كان.

إنّ تنظيم مفهوم فانون للثقافة الوطنية يتجلى في خلق صلات عملية بين المثقفين والجماهير، "تسعى الجماهير وراء توضيح الذات وفهم لآليات عمل العالم الموضوعي. وهي تبحث عن هذا التوضيح لدى تنظيم قادر على تحليل التناقضات الكامنة في الثورة من داخل الثورة، وبحسب تفكير فانون، فإنّ هذه العلاقة العملية بين المثقفين والجماهير أمر حاسم في البقاء وتقرير المصير وتطوّر مجتمع مستقل حقا . ومدى استمرار الجماهير في القيام بدور مركزي يحدد -بل يعرّف- نجاح إنسانية فانون الجديدة. ويؤدّي الدور الذي يقوم به المثقفون وظيفة أساسية ما دام يدعم جهود الجماهير ويعزّزها"[25] فالنخبة هي واجهة الأمم وصورة تعكس الوعي والعقلانية وهي خيط تواصل بين السلطة والجماهير، مساندة للأفواه الخافتة التي تهدف إلى تقرير مصيرها وتسيير شؤونها بكل حرية وكرامة.

كشفت الرواية الجزائرية المعاصرة عن بعض الجوانب المقموعة الصوت، التي طالما أثارت جدلا سياسيا وثقافيا لا يمكن السكوت عنه في أرض الواقع، يسمح العمل التخييلي للروائي بأن يعطي عدّة تأويلات لأحداث تاريخية دُنّست وطمست فأصبحت تشكّل خطرا هوياتيا مكبوتا بسبب السلطة التي تروّج لهوية ولثقافة على حساب أخرى، هذا سيؤدي مستقبلا إلى الفوضى بإلغاء الآخر والإعلاء من شأن طرف معيّن، لم تتخل الرواية المعاصرة عن جماليتها أيضا سواء من خلال أسلوب السخرية أو من خلال التناص مع الوقائع التاريخية وشخصياتها.

خاتمة:

نخلص من خلال ما سبق إلى أنّ الروائية تشتغل في خطابها إلى الكشف عمّا اعتبر مسكوتا عنه لحقب متفاوتة من الزمن، وهي بذلك تشتغل بوعي مضاد يعكس الرغبة في إعادة قراءة التاريخ وإعادة الاعتبار للمهمّش الثقافي، فقد أعربت الرواية الجزائرية المعاصرة عن القضايا التي تترجم البنية المحورية التي تشكّل الهوية الجزائرية وما أثارته من جدل على المستوى التاريخي من خلال الشخصيات الرمز أو الوقائع وما صاحبها من تضليل فمنحت صدامات عدّة لدى القارئ، بغض النظر عن الموروث اللغوي والثقافي والديني الذي كان ومازال يحظى باهتمام الدارسين.

*** *** ***

5. الهوامش:

[1] نادر كاظم، الهوية والسرد دار الفراشة للنشر والتوزيع، ط2، الكويت، 2016، ص 131، 132.

[2] أمال بوشارب، سكرات نجمة، منشورات الشهاب، الجزائر، 2015، ص48.

[3] عبد الغني عماد، سوسيولوجية الهوية، جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، شباط/ فبراير2017، ص04.

[4] نادر كاظم، الهوية والسرد، ص 80.

[5] أمال بوشارب، سكرات نجمة، ص 52- 53.

[6] المصدر نفسه، ص 49.

[7] نادر كاظم، الهوية والسرد ص 82.

[8] ينظر: هومي ك بابا، موقع الثقافة، تر: ثائر ديب، المجلس الأعلى للثقافة،ط1، 2004، ص44.

[9] نادر كاظم، الهوية والسرد ص 83.

[10] المرجع نفسه ص 132.

[11] المرجع نفسه ص 132.

[12] أمال بوشارب، سكرات نجمة، ص 18.

[13] المصدر نفسه، ص17.

[14] يحي الزعبي، سعاد شهاب، خصائص بيوت مأدبا التقليدية في بداية القرن العشرين، مطابع الدستور التجارية، عمان، 1995، ص 5.

[15] أمال بوشارب، سكرات نجمة، ص 88.

[16] المصدر نفسه، ص 187-188.

[17] نايجلسي . غيبسون، فانون المخيّلة بعد – الكولونيالية تر: خالد عابد أبو هديب، المركز العربي للأبحاث والدراسة السياسات، ط1، ص 303، ص 308.

[18] هومي ك بابا، موقع الثقافة، ص 42.

[19] أمال بوشارب، سكرات نجمة، ص 131- 132- 133.

[20] ينظر: نادر كاظم، الهوية والسرد، ص 84.

[21] أمال بوشارب، سكرات نجمة، ص 161.

[22] المصدر نفسه، ص 162.

[23] نادر كاظم، الهوية والسرد، ص 130.

[24] المرجع نفسه، ص 131.

[25] نايجلسي . غيبسون، فانون المخيّلة بعد – الكولونيالية، ص 303.